

بذور النصية في التراث اللساني العربي

د. إيمان سيدي موسى

جامعة البليدة 02-البليدة (الجزائر)

ملخص: يعالج هذا المقال قضية وجود بوادر الدراسات النصية عند العرب خاصة فيما يتعلق بالاتساق وأدواته الذي يساهم في الربط بين أجزاء النص، وقد وقفنا على نماذج عربية كانت لها إسهامات في الدراسة النصية من خلال التحليلات التي قاموا بها نذكر منهم ابن طباطبا، الجاحظ، الجرجاني حيث تجلت ملامح النصية عندهم في جانبها الإجرائي.

Abstract: This article deals with the issue of the existence of signs of textual studies among Arabs, especially with regard to consistency and tools, which contributes to the linkage between the parts of the text. We have stood on the Arab models have contributed to the study of text through their analyzes, including Ibn Tabatiba, Jahiz, ELdjordjani Where the features of the text in their procedural aspects.

الكلمات المفتاحية بالعربية: النص- الاتساق- الربط.

بالانجليزية: text- cohesion-connection

مقدمة:

تعد الدراسات النصية من أهم المجالات التي جذبت اهتمام الدارسين بمختلف اتجاهاتهم، فقد كانت المبادرة للغربيين في تقنين هذا العلم والتحقيق في مصطلحاته، إلا أن هذا لم يمنع من وجود بذور لهذا العلم في تراثنا اللساني بالرغم من أنهم لم يحددوا مصطلحاته ولا الأصول التي تحكمه إلا أنهم وقفوا على مبادئه أثناء تحليلاتهم اللسانية ومن اللغويين والنقاد الذين كانت لهم إسهامات في الدراسة النصية نذكر سيبويه والجاحظ والجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز، حيث اهتم هؤلاء بالأدوات التي تحكم

بناء النص وتسهم في ترابطه واتساقه وعلى إثر هذا نال هذا الموضوع اهتمامنا بالدراسة تحت إشكالية مفادها : ماهو مفهوم الاتساق؟ وماهي مظاهره في التراث اللساني العربي؟ وكيف استثمر علماء العربية مفهوم الاتساق في تحليلاتهم اللسانية؟.

1- مفهوم النص عند الغرب والعرب:

قبل التطرق إلى تعريفات النص عند علماء النص واللغويين العرب تجدر بنا الإشارة إلى أن البدايات الأولى لهذا العلم كانت مع المقال الذي نشره هاريس HARRIS سنة 1952 ، فقد حاول من خلاله أن يعطي توصيفا شاملا للنصوص، فبين فيه أن : " التعبير اللغوي المستقل بالإفادة أو الجملة هو مابه اللساني ، أما النص فليس إلا مظهرا من مظاهر الاستعمال اللغوي غير قابل للتحديد "¹

فهاريس يرى بأن الجملة تدرس مستقلة وذلك بحسب التقليد الذي أرساه بلومفيلد ، في حين أن النص يدرس في جانبه الاستعمالي ، وهذا يبين لنا جهود هاريس في تجاوز حدود الجملة من خلال محاولة إعطاء نموذج لتصنيف النصوص.

وهذا الاتجاه الجديد في دراسة النص أعطيت له ترجمات متعددة فقد عرف ب: لسانيات النص text linguistic و نحو النص text grammar ، بينما استعمل هارفج مصطلح textlogie، في حين أن درس لر استخدم مصطلح علم دلالة النص أما سوينسكي فيشيد بمصطلح نحو النص و تداولية النص وعلم اللغة النصي ونظرية النص.²

وعليه فإن الهدف من هذا الاتجاه الجديد في تحليل الظواهر اللسانية يكمن في تحديد القواعد التي تبني عليها النصوص، وذلك حتي يتسنى للدارسين تصنيف النصوص والتمييز بين النص واللانص، ولتحقيق هذا الهدف حددت جملة من المعايير تتمثل في : الاتساق والانسجام ويمثلان أهم المعايير لأن تحقق الانسجام مرتبط بمدى توفر أدوات الاتساق وتوظيفها بالشكل الذي يخدم المعنى، هذا بالإضافة إلى توفر القصيدة والمقبولية والمقامية وغيرها من المعايير حتى نستطيع معرفة القواعد التي بنيت عليها النصوص .

وقد عرف مصطلح النص عند الغربيين تعريفات عديدة تعددت بحسب الاتجاهات التي تناولته بالدراسة سنقتصر على بعضها حتى نبين وجهات نظر كل اتجاه.

1-1 مفهوم النص عند الغربيين: تشير المراجع بأن " الدلالة اللغوية لكلمة (texte) الأصل اللاتيني لكلمة نص (textus) ومعناه النسيج (tissu) ومنه تطلق كلمة (textil) على ما له علاقة بإنتاج النسيج بدءا بمرحلة تحضير المواد وانتهاء بمرحلة النسيج النهائي وبيعه، من هنا كان النص عبارة عن نسيج من الكلمات يترايط بعضها ببعض".³

ونلاحظ أن الدلالة اللغوية لكلمة نص تدل على الترابط بين أجزاء النص الذي يشبه إلى حد كبير الترابط الذي يجمع أجزاء النسيج، وهذا المفهوم يتداخل مع التعريف الاصطلاحي للنص وهذا ما سنوضحه من خلال عرض بعض التعاريف التي قدمت للنص.

أما اصطلاحا فقد تعددت التعاريف المتعلقة بالنص، وذلك بحسب الاتجاهات التي تناولته بالدراسة فمنها من نظر إلى النص في جانبه الخطي مثل هارفي الذي يرى بأن النص: "ترابط مستمر للاستبدالات السنتجمية التي تظهر الترابط النحوي في النص".⁴ وعليه فإن هارفي اعتمد على الترابط النحوي الذي يظهر التتابع الخطي للوحدات النحوية على المستوى السطحي للنص.

أما كريستيفا فقد ربطت النص بالموقف الاتصالي، حيث ترى بأنه: "جهاز غير لسانی يعيد توزيع نظام اللسان بالربط بين كلام تواصل يهدف إلى الإخبار المباشر بين أنماط عديدة من الملفوظات السابقة عليه أو المتزامنة معه، فالنص إذن إنتاجية".⁵ فالنص حسب كريستيفا يرتبط بالمقام التواصل من خلال عملية الإخبار مما يجعله في حالة إنتاجية متجددة ، وذلك بحسب السياقات المتعددة التي تستدعي إنتاج ملفوظات جديدة.

في حين نجد أن برينكر قد ربط بين الجانب اللغوي والاتصالي في تعريف النص حيث يقول: "يسم المصطلح "نص" تتابعا محدودا من علامات لغوية متماسكة في ذاتها وتشير بوصفها كلا إلى وظيفة تواصلية مدركة".⁶

وعليه يمكننا القول أن النص لم يسلم من تعدد التعاريف لتعدد الاتجاهات اللسانية التي تناولته بالدراسة ، لذا يتوجب على الدارسين عدم الاقتصار على الجانب المنطوق أو المكتوب أو التواصل وإنما يجب أن ينظر إلى الجوانب الثلاثة مجتمعة حتى

تتحقق الدقة في تحديد المفاهيم المتعلقة بالنص، بالإضافة إلى جملة من الشروط يجب توافرها حتى تتحقق النصية ونتمكن من التمييز بين النص واللانص.

2-1- معايير النصية عند علماء النص: لقد حدد ديوجراندي سبعة معايير لتحقيق النصية ، بحيث يشكل الاتساق والانسجام أهمها لأن النص كبنية لغوية يعتمد على جملة من الأدوات تظهر على المستوى السطحي للنص، والتي تؤدي بدورها إلى تحقق الانسجام الذي يرتبط بالجانب المعنوي المضمن في البنية العميقة للنص لذا سنركز على هذين الشرطين لبيان مدى أهميتهما في تحقيق النصية، والتي تتمثل في: "الاتساق والانسجام والقصد والقبول والإعلام والمقامية والتناص".⁷

فهذه المعايير تسهم في تحقق النصية إذا تم احترامها من قبل أقطاب عملية التواصل ، لأن كل شرط يتعلق بعنصر معين من عناصر العملية التواصلية ، فالاتساق والانسجام يرتبطان بالبنية اللغوية للنص لأن تشكيل النص يخضع لجملة من الأدوات تؤثر في الجانب المعنوي للنص، وهذه البنية اللغوية ترتبط بالمقام حتى يتحقق الغرض الذي أنتج من أجله النص ، أما القصد فيرتبط بمنشئ النص من خلال الموقف الذي يحمله المتكلم ضمن السياقات الكلامية المختلفة، في حين يرتبط القبول بمدى استجابة المخاطب للرسالة التي يحملها المتكلم في خطابه ، أما الإعلام فيمثل جملة الأخبار التي ينقلها المتكلم إلى المخاطب بحيث تتحقق فعاليتها بمدى تفاعل المتكلم مع هذه الأخبار، كما يمثل التناص أوجه التداخل بين نص معين ونصوص أخرى إما سابقة عليه أو متزامنة معه، ولأهمية الاتساق في تحقيق انسجام النصوص سنتطرق إلى مفهومه وأدواته التي تسهم في ترابط أجزاء النص حتى نتمكن من التمييز بين النص واللانص.

3-1- مفهوم الاتساق وأدواته عند علماء النص: يشير مفهوم الاتساق إلى جملة الروابط التي تجمع بين أجزاء النص حتى تتشكل لنا بنية نصية محكمة النسيج، والاتساق لا يرتبط بالجانب الشكلي فحسب وإنما يجب أن تتوفر فيه الدلالة. لذلك عرف فان دايك الاتساق انطلاقاً من الوظيفة الدلالية فيقول: "والاتساق في بداهة الفكر عبارة عن خاصية سيমানطيقية للخطاب، قائمة على تأويل كل جملة مفردة متعلقة بتأويل جملة أخرى، أما مصطلح الترابط فهو يشمل في الظاهر جانباً واحداً من اتساق الخطاب"⁸

ونلاحظ أن فان دايك ركز على الجانب المفهومي المفترض تحقيقه في الخطاب انطلاقاً من الترابط المفهومي بين الجمل ، لأن تأويلات الجمل تتعالق فيما بينها لتحقيق فحوى الخطاب.

ويعرف الاتساق أيضاً: "العلاقات أو الأدوات الشكلية والدلالية التي تسهم في الربط بين عناصر النص الداخلية، وبين النص والبيئة المحيطة من ناحية أخرى، ومن بين هذه الأدوات المرجعية"⁹

وعليه فالاتساق يشمل الأدوات الشكلية والدلالية التي تحقق الترابط على مستوى البنية الداخلية للنص، كما يشمل العناصر الخارجية المرتبطة بملازمات المقام، لأن عناصر المقام تساعد منشئ النص على اختيار الأدوات التي تحكم البنية الداخلية.

أما هاليداي ورقية حسن فيربطان مفهوم الاتساق بالمعنى فعرفا النص بقولهما: "إن مفهوم الاتساق مفهوم دلالي، إنه يحيل إلى العلاقات المعنوية القائمة داخل النص والتي تحدده كنص"¹⁰

فمفهوم النص حسب هاليداي ورقية حسن يرتبط بالمعنى بالدرجة الأولى من خلال العلاقات المعنوية التي تربط بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه، والتي تسمح لنا بالتمييز بين النص واللانص، وقد بينا ذلك من خلال مقطعين لغويين بحيث يتضمن المقطع الأول جملة من الخصائص المميزة (أدوات الاتساق) فيتشكل لنا كل موحد وهو النص، أما المقطع الثاني فتغيب فيه هذه المميزات فنتج لنا جمل غير مترابطة وهي اللانص.¹¹

ولتحقيق مفهوم الاتساق حددت جملة من الأدوات يشترط توفرها للحصول على بنية نصية تحقق لنا الإفادة ضمن سياقات مختلفة، مما يجعل الاتساق أهم شرط لتحقيق النصية لأنه لا يمكننا الحكم على انسجام النص إذا لم تتوفر فيه هذه الأدوات ، وقد حددها علماء النص لتمكين منشئ النص من استغلالها في إنتاج نصوصه.

4-1 أدوات الاتساق عند علماء النص:

1- الإحالة: تمثل الإحالة علاقة ربط بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه للمحافظة على الاستمرارية داخل النص، فقد أشار محمد خطابي إلى أن: " الإحالة

علاقة دلالية ، ومن ثم لا تخضع لقيود نحوية، إلا أنها تخضع لقيد دلالي وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر والمحيل والعنصر المحال إليه¹² فتتحقق الإحالة مرتبط بمدى التطابق الموجود بين العناصر الإحالية لأن عدم التطابق الإحالي يؤثر على المعنى، فيؤدي إلى تفكك النصوص.

وقد عرف الأزهر الزناد إلى مفهوم الإحالة بقوله: "تطلق تسمية العناصر الإحالية (Anaphora) على قسم من الألفاظ لا تملك دلالة مستقلة، بل تعود على عنصر أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من الخطاب"¹³ فالإحالة حسب الأزهر الزناد لا تحمل دلالة مستقلة لأن عناصر الإحالة ترتبط ببعضها لتحقيق الترابط بين أجزاء النص، وقد قسم هاليداي ورقية حسن الإحالة إلى قسمين: "إحالة مقامية

[Situational exophora] ونصية [Textual endophora] وتنقسم الإحالة النصية بدورها إلى قسمين: إحالة قبلية (إلى سابق) [To following text cataphora] وبعدية (إلى لاحق) [To preceding text anaphora]"¹⁴

فالإحالة المقامية تتضمن جملة من العناصر التي تحيل إلى المقام كضمائر المتكلم والمخاطب التي تدل على التفاعل الذي يحدث بين أقطاب عملية التواصل. أما بحسب المدى فتقسم إلى: أ-إحالة المدى القريب: "وتكون على مستوى الجملة الواحدة حيث تجمع بين العنصر الإحالي ومفسره.

ب-إحالة المدى البعيد: وتكون بين الجمل المتصلة أو الجمل المتباعدة في فضاء النص"¹⁵

وعليه فإن مدى الإحالة يرتبط بحاجة منشئ النص إلى الربط بين العناصر الإحالية بحسب الرسالة التي يحملها للمتلقي، فتكون على مستوى الجملة الواحدة أو يطول مداها لترتبط بين جمل متباعدة على مستوى النص.

الاستبدال: تتمثل عملية الاستبدال في تعويض عنصر بآخر داخل النص، يقول عنه محمد خطابي بأنه: "عملية تتم داخل النص إنه تعويض عنصر في النص بعنصر آخر شأنه في ذلك شأن الإحالة يختلف عنها في كونه علاقة تتم في المستوى النحوي- المعجمي بين كلمات أو عبارات."¹⁶

فالاستبدال يحقق الاتساق على مستوى النص من خلال عملية التعويض التي تتم بين العناصر اللغوية، فهو إما أن يكون اسمياً أو فعلياً أو جملياً وذلك لتجنب التكرارات التي تخل ببنية النص فتؤدي إلى تفككه.

الحذف: يعد الحذف وسيلة من وسائل الاتساق وهو كالأستبدال إلا أن الفرق بينهما يكمن في كون الحذف استبدالاً بالصفـر، ومن ثم فالـحذف: "كعلاقة اتساق لا يختلف عن الاستبدال إلا يكون الأول استبدالاً بالصفـر".¹⁷

وعليه فإن الحذف لا يظهر على مستوى البنية السطحية للنص، فاللفظ يكون محذوفاً إلا أن موضعه في البنية العميقة يبقى، وهو الذي يحافظ على اتساق النص ليحقق المعنى المطلوب.

الربط: وهو تحديد للعلاقة التي يترابط بها اللاحق مع السابق بشكل منتظم.¹⁸ فالربط يعمل على تنظيم العلاقات التي تترابط بها عناصر النص، بحيث تؤدي الواو وظيفة الجمع المطلق بين الوحدات المختلفة، في حين تدل أو على التخيير ولكن على الاستدراك والتفريع بواسطة لأن وغيرها من الأدوات التي تتضافر فيما بينها لتحقيق الاتساق حتى ينتج لنا نص محكم البناء يؤدي الوظيفة التبليغية التي أنشئ من أجلها. **التعريف:** "وهو وضع العناصر الداخلة في عالم النص حيث تكون وظيفة كل من هذه العناصر لا تحتمل الجدل في سياق الموقف ومعنى أن تحدد الوضع باسم علم أوصفة معرفة".¹⁹

فوظيفة التعريف تتمثل في ربط العناصر داخل النص، فهي مثل الإحالة لأنها تقوم بتحديد العنصر المعرف في النص بعنصر آخر ذكر سابقاً أي أن وظيفة التعريف تتمثل في الإحالة إلى مذكور سابقاً.

وهذه الأدوات تحقق لنا الاتساق النحوي، أما الاتساق المعجمي فقد حدده علماء النص في التكرار والتضام، إذ "يتطلب إعادة عنصر معجمي أو ورود مرادف له أو شبه مرادف أو عنصراً مطلقاً أو اسماً عاماً".²⁰

فالتكرار يتمثل في إعادة لفظ معين وهذا التكرار إما أن يكون لفظياً بإعادة العنصر نفسه وإما أن يكون معنوياً أي اختلاف اللفظ واتحاد المعنى. أما التضام فيكون بارتباط زوج من الكلمات بعلاقة ما، وهو ما يعرف بالطباق.

وهذه الأدوات تمثل ما تم التوصل إليه في لسانيات النص في تحديد قواعد لتشكيل النصوص حتى يتحقق الاتساق والانسجام باعتبارهما أهم شرطين لتحقيق النصية، وقد وجدت إرهابات للبحث النصي في التراث اللساني العربي تتوافق مع مفاهيم لسانيات النص الحديثة، وهو ما سنوضحه فيما يلي لبيان أوجه التداخل والاختلاف بين لسانيات النص والموروث العربي ذي العلاقة بالنصية.

2- مباحث النصية في التراث اللساني العربي:

قبل التطرق إلى مظاهر النصية في التراث اللساني العربي تجدر بنا الإشارة إلى تعريف النص والاتساق عند المتقدمين لبيان أوجه التداخل بين علماء اللغة وعلماء لسانيات النص.

فالنص في اللغة يعني الرفعة والإظهار، يقال: "النص رفعت الشيء نص الحديث ينصه نصا: رفعه و كل ما أظهر فقد نص ، يقال : نص الحديث إلى فلان أي رفعه و كذلك نصصته إليه، ونص المتاع نصا جعله بعضه على بعض ، و أصل النص أقصى الشيء و غايته ، و نص الرجل نصا إذا سأله عن شيء حتى يستقصى ما عنده ، و نص كل شيء منتهاه .

الأزهري: " النص أصله منتهى الأشياء و مبلغ أقصاها ، و في حديث هرقل : ينصه أي يستخرج أسهم و يظهره و منه قول الفقهاء نص القرآن و نص السنة أي ما دل ظاهر لفظها عليه من الاحكام و انتص الشيء و انتصب إذا استوى و استقام".²¹

فهذه المعاني اللغوية تفيد أن النص معناه الرفع والإظهار إما في جانبه المنطوق كالحديث أو في جانبه المكتوب المتمثل في الكتاب و السنة .

أما اصطلاحاً فقد عرفه الشريف الجرجاني بقوله: " ما ازداد وضوحاً على الظاهر بمعنى في المتكلم وهو سوق الكلام لأجل ذلك المعنى كما يقال أحسنوا إلى فلان الذي يفرح بفرحي ويَغْمُ بغمتي كانتص نصاً في بيان محبته".²²

وهذا التعريف الاصطلاحي يتداخل بشكل كبير مع الدلالة اللغوية لكلمة نص وهي الظهور، ومعنى هذا أن وظيفة النص الأساسية هي إظهار الأفكار المختزنة في ذهن المتكلم إلى السامع الذي يتلقى النص من المرسل.

أما الشافعي فيعرفه بقوله: " هو ما أتى الكتابُ على غاية البيان فيه فلم يحتج مع التنزيل فيه إلى غيره"²³

فالشافعي يركز على جانب الإظهار في تحديد النص، وهذا يشكل تداخلا مع ما رأيناه في التعاريف اللغوية للنص.

وإذا عدنا إلى النحاة واللغويين المتقدمين، فلم يذكر مصطلح نص صراحة، وإنما كان يطلق عليه مصطلحات مثل: "الكلمة والقطعة والقصيدة بل إن عبد القاهر الجرجاني لم يستخدم مصطلح نص وإنما كان يستخدم لفظ شعر"²⁴ ولكن عدم استخدام مصطلح نص عند المتقدمين لا يعني أنهم لم يدركوا مفهومه بالمعنى الدقيق الذي توصل إليه علماء النص، لأنهم قدموا قراءات نصية بالدقة نفسها التي وجدناها عند علماء النص، وهذا ما سنوضحه من خلال بعض النماذج حتى نبين أوجه التداخل والاختلاف بين علماء النص وعلماء اللغة المتقدمين.

2-1 عند النحاة: تظهر البوادر النصية عند سيبويه عندما تحدث عن باب 'الاستقامة والإحالة'، إذ أدخل فيه الجوانب التي تركز عليها الدراسة النصية وهي المتكلم والمتلقي والسياق والنص كبنية لغوية ينقله المتكلم إلى السامع لأداء وظيفة تواصلية معينة، فيقول: "هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب.

فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس وسأيتك غدا.

وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره فتقول: أتيتك غدا وسأيتك أمس.

وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل وشربت ماء البحر ونحوه.

وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكى زيدا يأتيتك وأشباه هذا.

وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس."²⁵

وهذه الفروق التي أثبتتها سيبويه تتوافق مع دلالة النص في الدراسات اللسانية المعاصرة، وذلك من خلال ارتباط النص كبنية لغوية بسياق معين للتأثير في المتلقي بغية أداء وظيفة تواصلية بين قطبي التخاطب مشافهة وتحريرا، فسيبويه حينما قدم تحليلاته لهذه الفروق بين الجانب الشكلي المرتبط بالاتساق (مواضع الألفاظ) والجانب المعنوي المرتبط بالانسجام أي الإفادة التي يحققها النص في واقع الخطاب حقق بها تداخلا مع أهم المعايير المعتمدة في اللسانيات النصية.

كما قدم سيبويه تحليلات نحوية تتوافق وأدوات الاتساق عند علماء النص تتمثل في الآتي:

أ-الإسناد: تمثل علاقة الإسناد رابطاً مهماً في التركيب النحوي، لأنها تضم علاقة دلالية بالدرجة الأولى بين المسند والمسند إليه، ويوضح سيبويه هذه العلاقة عند حديثه عن باب المسند والمسند إليه فيقول: "وهما ما لا يُغنى واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بدءاً، فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه، وهو قولك: عبد الله أخوك: وهذا أخوك"²⁶

فعللاقة الإسناد تؤدي إلى اتساق النصوص من خلال العلاقات النحوية التي تترابط فيما بينها لتشكيل نصوص متسقة ومنسجمة لأن أي نص ينبنى على علاقة إسنادية ترتبط بأجزاء النص من خلال أدوات الاتساق المختلفة كالروابط والعلاقات النحوية وغيرها من الأدوات.

ب-الحذف: يعتبر الحذف أداة من أدوات الاتساق كما رأينا عند علماء النص، وقد وجد هذا الباب في تراثنا القديم، وقد عُذَّ من أساليب العربية، ويلجأ إليه المتكلم إن وجد ما يدل عليه في السياق اللغوي، أو لاقتضاء المقام للحذف، وقد بين سيبويه الغرض من الحذف بقوله: "اعلم أنهم مما يحذفون الكلم وإن كان أصله في الكلام غير ذلك، ويحذفون ويعوضون، ويستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يستعمل حتى يصير ساقطاً"²⁷

وعليه فالحذف يعتمد على المقام وقدرة المتلقي على تقدير المحذوفات في الرسالة التي ينقلها المتكلم إلى المخاطب، والعنصر المحذوف في النص لا يظهر في البنية السطحية إلا أن معناه يبقى موجوداً في البنية العميقة، وهو بهذا يتوافق مع مفهوم الحذف عند هاليداي ورقية حسن أي استبدال بالصف.

ج-الإحالة: تطرق سيبويه في الكتاب إلى عناصر الإحالة كما جاءت في أدوات الاتساق عند هاليداي ورقية حسن، فيقول سيبويه في تحديد الإحالة الإشارية باعتبار أن الإحالة علاقة دلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه "وذلك أنك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص فقلت: عبد الله وربّي، كأنك قلت: ذاك عبد الله أو هذا عبد الله أو سمعت صوتاً فعرفت صاحب الصوت فصار آية لك على معرفته فقلت:

زيد وربي، أو مسست جسدا أو شممت ريحا فقلت زيد أو المسك أو ذقت طعاما فقلت: العسل²⁸

فقد ذكر سيبويه العلاقة الدلالية التي نربط المحيل بالمحال إليه داخل النص، كما أشار إلى الإحالة الإشارية ووظيفتها في تحديد العلاقة بين العناصر الإحالية كما حددها هاليداي ورقية حسن ، وهذا يدل على الدقة التي كان عليها نحائنا في تحليل الجمل وحتى الظواهر النصية منها.

2-2 عند النقاد والبلاغيين: لقد قدم النقاد تحليلات للتمييز بين النصوص الجيدة والفسادة، وهي نظرة في التحليل تتفق مع الأدوات التي حددها علماء النص للتمييز بين النص واللانص، فقد أشار ابن طباطبا إلى هذه الأدوات عند حديثه عن جودة القصيدة ، فتطرق إلى الأثر المعنوي الذي يضيفه التقديم والتأخير على أجزاء النص إذا لم يحسن الناظم توظيفه، فيقول: "وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله فإن قدم بيتا على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نقض تأليفها... بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجا وحسنا وفصاحة وجزالة ألفاظ حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغا تقتضي كل كلمة ما بعدها ويكون ما بعدها متعلقا بها مفتقرا إليها".²⁹

فابن طباطبا ينوه من خلال هذا القول إلى الأثر المعنوي الذي يضيفه التقديم والتأخير على أجزاء النص الشعري إذا أحسن الناظم توظيفه، كما أشار إلى فكرة التعليق بين أجزاء القصيدة حتى يتكون لنا نص محكم البناء ليؤدي المعنى الدقيق الذي نظمت من أجله القصيدة ويتم التمييز بين النظم الجيد والنظم الفاسد، وهو الهدف الذي توصل إليه علماء النص من خلال الأدوات التي تسمح لهم بالتمييز بين النص واللانص.

كما تطرق ابن طباطبا إلى الأدوات التي تحقق اتساق النص الشعري فيقول: "وللشعر أدوات يجب إعدادها قبل مراسه وتكلف نظمه... فممنها التوسع في علم اللغة والبراعة في فهم الإعراب والرواية لفنون الآداب... والوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر والتصرف في معانيه، في كل فن قالته العرب والسنن المستدلة منها وتعريضها وإطنائها وتقصيرها وإطالتها وإيجازها ولطفها وخلابتها وعدوبة ألفاظها وجزالة معانيها وحسن مبانيها وحلاوة مقاطعها وإيفاء كل معنى حظه من العبارة وإلباسه ما

يشاكله من الألفاظ حتى يبرز في أحسن زي وأبهى صورة واجتناب مايشينه من سفساف الكلام وسخيف اللفظ، والمعاني المستبردة والتشبيهات الكاذبة والإشارات المجهولة والأوصاف البعيدة والعبارات الغثة.³⁰

فقد أشار ابن طباطبا إلى دقة اللفظ وسلامة المعنى، إذ يرتبط الأول بالجانب الشكلي الذي يظهر على المستوى السطحي، أما الثاني فيرتبط بالجانب المعنوي الذي يتمظهر على مستوى البنية العميقة فيتحقق به الانسجام، كما أشار إلى الإحالات الإشارية المجهولة التي تؤثر على اتساق النص وانسجامه، لأن عناصر الإحالة يشترط فيها التطابق الدلالي وهو ما تم التركيز عليه في لسانيات النص.

أما البلاغيون فقد قدموا تحليلات تتوافق مع المفاهيم النصية الحديثة أمثال الجاحظ والجرجاني، بحيث قدم كل منهما تحليلات لأدوات الاتساق تتداخل في كثير من جوانبها مع أدوات الاتساق عند علماء النص، وهذا ما سنبرزه من خلال آرائهم في تحليل النصوص الشعرية خاصة ما قدمه الجرجاني في إثبات فكرة الإعجاز انطلاقاً من النص القرآني.

لقد تطرق الجاحظ إلى المعايير التي تحقق النصية فتحدث عن الاتساق ودوره في الربط بين أجزاء القصيدة، فاصطلح على الاتساق بمصطلح السبك بقوله "وأجود الشعر ما رأيت متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا وسبك سبكا واحدا فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان"³¹

ويوضح الجاحظ أن جودة الشعر تكمن في حسن السبك والربط بين أجزاء البيت وكذا أجزاء القصيدة، لتشكل لنا نصا متلاحما مرتبا ترتيبا يسمح بجريانه على اللسان وحفظه بسهولة لأن طريقة سبكه الجيدة أدت المعنى المنوط من إنتاج النص.

أما الجرجاني فقد قدم تحليلات للنص القرآني والنصوص الشعرية تتفق في كثير من جوانبها مع الدرس النصي الحديث، فربط النص بالسياق الذي يعد من المعايير التي تتحقق بها النصية فيقول: "واعلم أن ليست المزية واجبة لها في أنفسها ومن حيث هي على الإطلاق ولكن تعرض سبب من المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض استعمال بعضها من بعض، فالتنكير لا يروق في كل مقام والتقديم لا يروق في كل مقام وليس من فضل أو مزية لشيء من ذلك إلا بحسب الموضع وبحسب المعنى."³²

فالجرجاني يقصد التراكيب التي تترابط فيما بينها من خلال وسائل الاتساق التي تستعمل في النص بحسب المعنى والسياق الخارجي الذي يحكم كلا من المتكلم والمتلقي، فهو يربط التنكير والتقديم اللذين يبتغيهما الناظم بالمعنى والسياق لأن توظيفهما في تحقيق معنى النظم لا يكون عبثا وإنما لتبليغ رسالة معينة للمتلقي ضمن سياق معين يقتضي هذا التوظيف.

وعليه فإن الجرجاني قدم في تحليلاته للنص القرآني والنصوص الشعرية أدوات تتفق في دلالتها مع أدوات الاتساق عند علماء النص، نجملها فيما يلي:

أ- العطف: لقد بين الجرجاني أهمية حروف العطف في الربط بين الجمل وذلك بتحديد الفروق الدلالية بين حروف العطف "فالواو تفيد الإشراف في الحكم، والفاء تفيد الترتيب من تراخ وثم تفيد الترتيب بتراخ وأو تفيد التخيير ولكن وبل وكل منهما تفيد الاستدراك والإضراب".³³

وهذه الروابط تعمل على تحقيق الاستمرارية على مستوى النص، ولكن يشترط الجرجاني توظيفها حسب المعاني التي وضعت من أجلها، وهي الفكرة التي تم التركيز عليها عند علماء النص أي تحقيق الترابط بين أجزاء النص.

ب- الإحالة: قدم الجرجاني تحليلات لأبيات شعرية وظف فيها عناصر الإحالة التي عني بها علماء النص كالضمائر والإشارة، وذلك عند تمييزه بين النظم الجيد والنظم الفاسد، فالإحالة بالضمير عند الجرجاني تضيفي على النظم استحسانا أو هجنة فمثل لحسن استعمال الضمير بيت البحري:

"بلونا ضرائب من قد ترى فما غن رأينا لفتح ضريبا

هو المرء أبدت الحادثا ت عزما وشيكا ورأيا صليبا

فإذا رأيتهما قد راقتك وكثرت عندك وجدت لهما اهتزازا في نفسك فعد وانظر في السبب واستقص في النظر فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدم وآخر وعرف ونكر وحذف وأضمر... أفلا ترى أن أول شيء يروك منها قوله: "هو المرء أبدت اه الحادثات".³⁴

كما أشار إلى وظيفة اسم الإشارة في تحسين النظم عند تعليقه على قول الشاعر:

"وإن قتل الهوى رجلا فإني ذلك الرجل

أنظر إلى الإشارة والتعريف".³⁵

ونلاحظ من خلال القول أن الجرجاني أرجع دقة النظم إلى حسن استعمال الناظم للضمائر حيث أغنى توظيف الضمير عن التكرار المخل بالمعنى، كما أشار إلى دور اسم الإشارة في تحسين النظم، وهي أدوات ترتبط بمفهوم الإحالة عند علماء النص.

ت-الربط بالموصول: وهو أحد عناصر الإحالة عند علماء النص، إلا أن الجرجاني خصص له باباً مفرداً في دلائل الإعجاز لأهميته في تحقيق الترابط بين الجمل، فقد عده كالإحالة بالضمير تارة لأن صلة الموصول يجب أن تتضمن عائداً على الجملة السابقة، وعده ضرباً من التعريف تارة أخرى لأنه يحدد الاسم المذكور قبله، فالاسم الموصول إما أن يربط بين جملتين معلومتين من قبل السامع فيتحقق معنى الخبر (الإفادة)، وإما أن يكون الخبر المتضمن "الذي" مجهولاً من قبل السامع كقولنا: هذا الذي كان عندك بالأمس³⁶ لشخص مجهول أن شخصاً عنده، فلا يمكننا القول بأنه خبر لفقده شرط الإفادة، فالجرجاني يبين لنا دقة استعمال الموصول في الربط بين الجمل، بحيث يستقيم المعنى في موضع دون آخر، وذلك بحسب السياق الذي يحيط بالمتكلم والمخاطب، وهو ما يفرض إمكانية الربط بالموصول من عدمه.

ث- الربط بالتعريف: تتعدى وظيفة أداة التعريف نقل النكرة إلى معرفة، لأنها تعمل على الربط بين الجمل مثلها مثل الضمير، فتحيل المتلقي إلى شيء سبق ذكره وقد أرجع الجرجاني الفضل والمزية إلى الجمع بين التعريف والإشارة في قول ابن البواب:

وإن قتل الهوى رجلاً فإنني ذلك الرجل³⁷

لكن رغم تأكيد الجرجاني على أهمية الربط بالتعريف، إلا أنه يرى بأنه لا يصلح في كل مقام، لأن هناك بعض المواقف تقتضي التنكير لا التعريف، وقد بين ذلك من خلال المثال الذي أورده من قول الشاعر "فلو إذ نبا دهر"، وأنكر صاحب³⁸ فالتنكير عند الجرجاني يحقق الاتساق على مستوى النص مثله مثل التعريف لأن التعريف لا يصلح في جميع المواضع، فقد رد جودة النظم إلى تنكير كلمتي صاحب ودهر حتى يتحقق المعنى الذي أراده الناظم.

ج-التقديم والتأخير: يعد التقديم والتأخير من أدوات الاتساق عند الجرجاني، لأنه يتجاوز الترتيب المتعارف عليه بين عناصر الجملة فهو يخضع إلى المقام وحال السامع لتحقيق العملية التواصلية بشكل سليم، وقد بين أهمية التقديم والتأخير في تحقيق جودة النظم عند تعليقه على بيت إبراهيم بن العباس:

"فلو إذ نبا دهر وأكر صاحب وسلط أعداء وغاب نصير
تكون عن الأهواز داري بنجوة ولكن مقادير جرت وأمور

فإنك ترى ما ترى من الرونق والطلاوة ومن الحسن والحلاوة، ثم تتفقد السبب في ذلك فتجده إنما كان من أجل تقديمه الظرف الذي هو "إذ نبا" على عامله الذي هو "تكون" وأن لم يقل: فلو تكون عن الأهواز داري بنجوة إذ نبا دهر"³⁹

وعليه فإن التقديم والتأخير يتيح للمتكلم الحرية في نوظيف الوحدات اللغوية مما يحقق الترابط على مستوى النص، عكس الجملة في اللغات الأجنبية التي تتميز بالثبات، ويشترط في التقديم مناسبة المقام حتى يتحقق المعنى المقصود.

ح -الحذف: يرى الجرجاني أن الحذف يعمل على الربط بين أجزاء النص، لأن بعض المواقف تقتضي الحذف بدل الإفصاح، فهو يرى بأن الحذف: "باب دقيق المسلك لطيف المأخذ، عجيب الأمر شبيه بالسحر فإنك به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت أزيد للإفادة."⁴⁰

فالحذف عند الجرجاني يحقق الترابط على مستوى النص لأن السامع يقدر العنصر المحذوف حسب السياق الذي ورد فيه النص، وذلك من خلال عملية عقلية للوصول إلى المعنى المقصود من قبل المتكلم، وهو استبدال بالصفير مما يشكل لنا تدخلا مع دلالة الحذف عند علماء النص.

خ-الشرط والجزاء: يتحقق اتساق النصوص في الشرط والجزاء من خلال الروابط التي تربط جملة الشرط بالجواب، وهوما يدخل ضمن الأدوات التي يتحقق بها الاتساق عند علماء النص، ويظهر هذا الترابط من خلال الفروق الدلالية التي وضحها الجرجاني عند حديثه عن معنى الشرط بقوله: "وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: "إن تخرج أخرج" و"إن خرجت خرجت" و"إن تخرج فأنا خارج" و"أنا خارج إن خرجت" و"أنا إن خرجت خارج"⁴¹

فوجوه الشرط والجزاء التي أوردها الجرجاني تخضع إلى سياق الموقف والغرض الذي يبتغيه المتكلم من إيراد هذه الوجوه، وارتباط الشرط بالجزاء يتداخل مع الرابط السببي في لسانيات النص من خلال توظيف الضمير لتأكيد الفعل من قبل المتكلم، وهذا ما يفرض تغير دلالة صيغة الماضي إلى المستقبل لا رتباطها بجواب الشرط الذي يحدث في

المستقبل، كما تشكل الفاء الواقعة في جواب الشرط نوعاً من أنواع الربط مما يزيد في تحقيق التماسك في النصوص.

د-الحال:خصص الجرجاني باباً مفرداً للحال بين من خلاله الفروق والوجوه التي تكون عليها الحال في الكلام، فيقول موضحاً هذه الفروق: "وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: "جاءني زيد مسرعاً" و"جاءني زيد يسرع" و"جاءني وهو مسرع" أو يسرع و"جاءني قد أسرع وجاءني وقد أسرع".⁴²

وهذه الفروق الدلالية في توظيف الحال تعمل على تحقيق التساق والترابط بين أجزاء النص، وذلك من خلال الضمير الذي يشكل عنصراً مهماً في تحقيق الترابط بين أجزاء النص عند علماء النص وهنا تتمظهر لنا فعالية التداخل بين وظيفة الضمير في تحقق الاتساق عند الجرجاني وعلماء النص.

ذ-التكرار: يشكل التكرار أداة من أدوات الاتساق على المستوى المعجمي، وقد أولى له الجرجاني عناية كبيرة، لأنه يعمل على تحقيق الاتساق من خلال معاني النحو فتتحقق بذلك جودة النظم، والتكرار إما أن يكون جزئياً أو بتكرير لفظ بأكمله أو جملة بأكملها وقد مثل للأول بقول البحتري:

"فكالسيف إن جئته صارخاً وكالبحر إن جئته مستثيباً"⁴³

وقد أرجع الجرجاني جودة النظم إلى العطف بالفاء وتكرير الكاف وحذف المبتدأ لأن التقدير هو كالسيف، وقد كرر الكاف في قوله كالسيف-كالبحر كما كرر الشرط وجوابه "إن جئته صارخاً" و"إن جئته مستثيباً"، وهنا يتبين لنا نوعان من التكرار تكرر جزء من الكلمة "كا" وتكرار جملة بأكملها (جملة الشرط وجوابه) وهو ما يشكل تكراراً بالمعنى، لأنهما اتفقتا في المعنى واختلفتا في اللفظ.

خاتمة:

بعد أن عالجت في هذا المقال بؤادر النصية عند الغرب والعرب وتطرقنا إلى نماذج من الدراسة النصية عند العرب بمختلف توجهاتهم من نقاد ولغويين وبلاغيين خلصنا إلى النتائج التالية:

- وجود بؤادر الدراسة النصية عند العرب كجانب إجرائي لا تنظيري وذلك من خلال التحليلات التي عرضناها في هذا المقال عند كل من اللغويين والنقاد والبلاغيين.

- غياب الجانب الاصطلاحي في الدراسة النصية عند العرب حيث أنهم كانوا يحللون النصوص بالاعتماد على الآليات التي وجدناها عند علماء النص كابن طباطبا الذي فرق بين النظم الجيد والفساد من خلال التقديم والتأخير الذي يعمل على الربط بين أجزاء القصيدة وفكرة التعليق التي ترتبط بدقة اللفظ وسلامة المعنى.
- غياب مصطلح نص عند العرب المتقدمين حيث عبروا عنه بمصطلحات عديدة مثل: شعر، لفظ، كلام... إلخ وأول استعمال لمصطلح نص كان عند علماء الأصول أثناء تعريفهم للنص القرآني.
- وجود أدوات الاتساق عند العرب وقد تبين ذلك من خلال النماذج التي أوردناها عند النقاد واللغويين والبلاغيين خاصة الجرجاني الذي اتفق مع الغربيين في كثير من أدوات الاتساق.
- ظهور ملامح النصية بشكل دقيق مع الجرجاني الذي بلورها أكثر من سابقيه وتجلت ذلك في نظرية النظم التي حلل من خلالها مجموعة من النصوص الشعرية وفق المعايير النصية التي وجدناها عند دي بوجراند.
- تفرد الجرجاني بمجموعة من أدوات الاتساق والانسجام تتوافق والخصائص التركيبية للغة العربية كالتقديم والتأخير والحال والتمييز وغيرها من الأدوات.
- اهتمام القدامى بالمقام الذي يربط النص بمنتجه والمقام الذي ورد فيه فتحليلات كل من اللغويين والنقاد والبلاغيين ركزت على المقام لأهميته ومن أمثلة ذلك سيبويه حين تعريفه للكلام وكذا الجرجاني الذي أولاه أهمية كبيرة في نظرية النظم.

هوامش البحث:

1- بحيري سعيد حسن، علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1997، ص:18.

2- بوقرة نعمان، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب دراسة معجمية، عالم الكنب الحديث للنشر والتوزيع إربد، ط1، 2009، ص:23.

3- عبد المجيد جميل، بين البلاغة واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1998، ص:69-70.

4- بحيري سعيد حسن، علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، ص188.

5- كريستيفا جوليا، علم النص ت: فريد الزاهي، مرا: عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1997، ص:21.

6- كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، ط1، 2005، ص:27.

7- دي بوجراند، النص والخطاب والإج راء، تح: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، 1998، ص:03 وما بعدها.

8- فان دايك، النص والسياق، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق المغرب، د ط، 2000، ص:137.

9- الفقي صبحي إبراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2000، ص:96.

10 - Halliday, M.A.K and R Hassan ; Cohesion in English; Longman Group limited ; London ; 1976. p :4

11- ينظر خطابي محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي الدار البيضاء، ط1، 1991، ص:12.

12- خطابي محمد، لسانيات النص، ص:17.

13- الزناد الأزهر، نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1993، ص:118.

14 - Halliday and Hassan ; cohesion in English ; p :33.

- ¹⁵ - عفيفي أحمد، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط¹، 2001، ص: 120.
- ¹⁶ - خطابي محمد، لسانيات النص، ص: 19.
- ¹⁷ - المرجع نفسه، ص: 21.
- ¹⁸ - المرجع نفسه، ص: 23.
- ¹⁹ - دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص: 310.
- ²⁰ - خطابي محمد، لسانيات النص، ص: 24.
- ²¹ - ابن منظور جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب تح: نخبة من الأساتذة، دار المعارف القاهرة، دط، دت، مادة نصص.
- ²² - الجرجاني الشريف، التعريفات، مكتبة لبنان، د ط، 1985، ص: 130.
- ²³ - الشافعي محمد بن إدريس، الرسالة، تح: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، د ط، 1939، ص: 32.
- ²⁴ - عليان يوسف سليمان، النحو العربي بين نحو الجملة ونحو النص مثل من كتاب سيبويه، بحث منشور في المجلة الأردنية، مج 07، ع 1، 2011، ص: 193-194.
- ²⁵ - سيبويه أبو بشر عثمان بن قنبر، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط³، 1985، 25/1-26.
- ²⁶ - سيبويه، الكتاب 23/1.
- ²⁷ - المصدر نفسه، 24/1-25.
- ²⁸ - المصدر نفسه، 2/130.
- ²⁹ - ابن طباطبا محمد أحمد، عيار الشعر، شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط²، 2005، ص: 131.
- ³⁰ - المصدر نفسه، ص: 10.
- ³¹ - الجاحظ عمرو بن بحر، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي القاهرة، ط⁷، 1998، 67/1.
- ³² - الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز اعتنى به علي محمد زينو، مؤسسة الرسالة ناشرون بيروت لبنان، ط¹، 2005، ص: 08.

-
- ³³ - ينظر المصدر نفسه، ص: 172.
- ³⁴ - المصدر نفسه، ص: 79.
- ³⁵ - المصدر نفسه، ص: 84.
- ³⁶ - ينظر: المصدر نفسه، ص: 157.
- ³⁷ - المصدر نفسه، ص: 84.
- ³⁸ - ينظر: المصدر نفسه، ص: 80.
- ³⁹ - المصدر نفسه، ص: 80.
- ⁴⁰ - المصدر نفسه، ص: 120.
- ⁴¹ - المصدر نفسه، ص: 77.
- ⁴² - المصدر نفسه، ص: 77.
- ⁴³ - المصدر نفسه، ص: 79-80.